رمزية الكرامة ومدلولها
في مناقب أحمد بن يوسف المليانى

د. الحمدي أحمد
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية
جامعة وهران

تمهيد:

أغلب المؤلفات التي عرفها المغرب الإسلامي في نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر الهجريين تتعلق بالعلوم الدينية، ولعل أبرز شيء يميزها هو انتشار كتب التصوف على وجه الخصوص. ولعل الواحد لا يبالغ إذا قال أنها تعد بالمئات، فمعظم الفقهاء . أو جلهم . كانوا متصوفة، وامتزج بذلك الفقه بالتصوف في التأليف، والشرح، والدرس. ولما أصبح هذا الفن يشكل مرجعية لا يمكن تجاهلها، كثرت المدونات التي تهتم بالفكر المناقبي أو الكرامي. هذا الأمر لم تتجاوز عنه السلطة التي راقبته بجدية، من خلال التضييق على مشايخه، وعلى أتباعهم في الحواضر، والقرى. ومن بين أشهر متصوفة هذا العهد أحمد بن يوسف المليانى، الذي تعدت شهرته مجاله الجغرافي بالمغرب الأوسط، إلى الأقصى وكثر أتباعه، وسجل تلامذته وأنصاره مناقبه تباعا.

المخطوط:

المخطوط الذي أنا بصدد الحديث عنه، يحمل عنوان: (بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار[1] ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب الدار). وهو يقع في 174 لوحة، معدل الأسطر في كل وجه أو ظهر 33. و يوجد ببعض أوراقه بياض، والنسخة التي بين أيدي الباحث عارية عن اسم الناسخ، وتاريخ النسخ. وقام العديد من المهتمين بمناقب المليانى باختصاره، والصباغ لا يكاد يفصل بين التاريخ والوقائع عن الحكايات والأساطير.

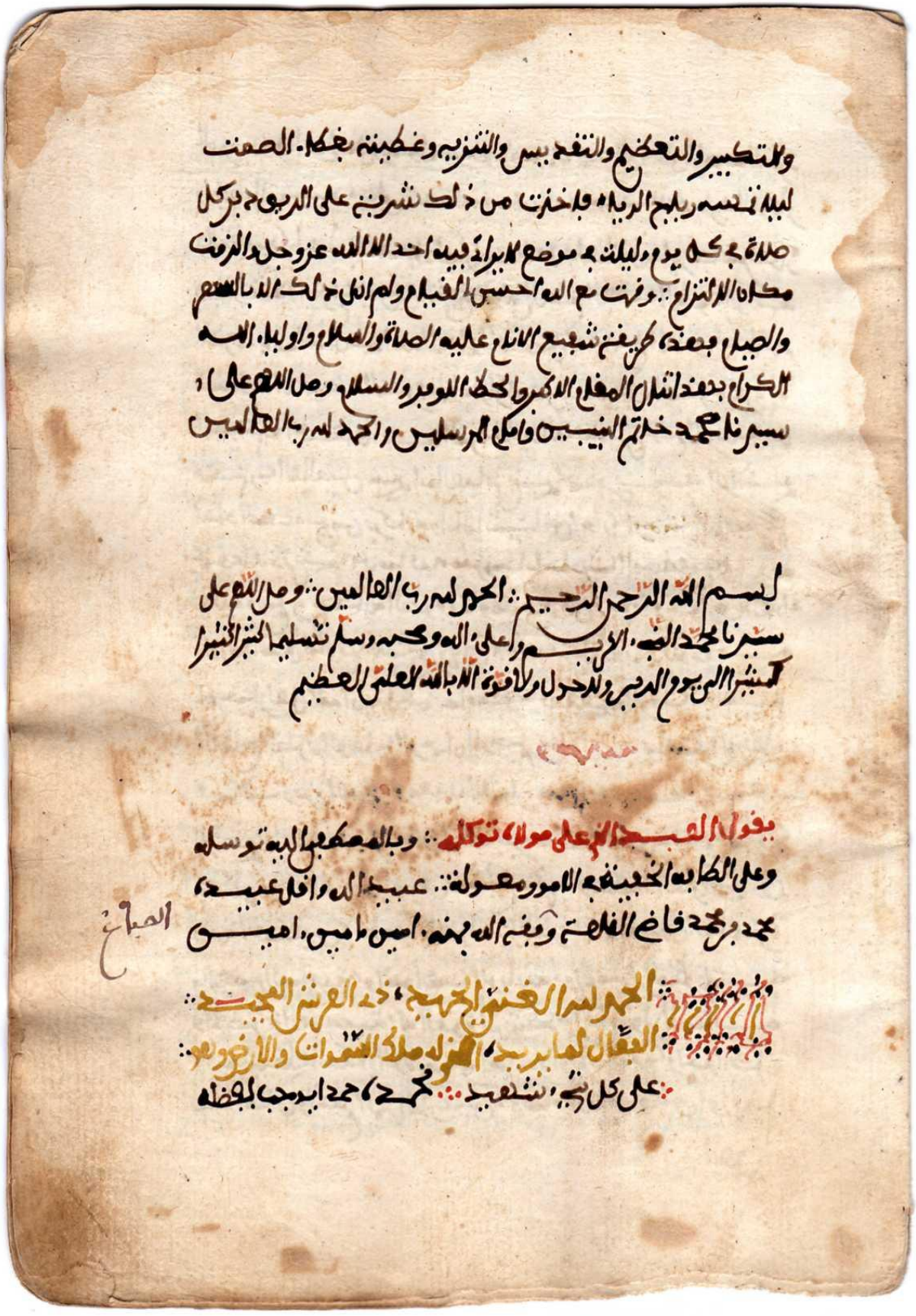

والتكبير والتعظيم والتقديس والتنزيه وعظمته بجلاله. الصمت
لنبيه نفسه بليغ الرياء فاخترت من ذلك شرفني على الدرب [illegible] بكل
صلاة في كل يوم وليلة في موضع لا يراه فيه احد الا الله عز وجل والزمت
مكان الالتزام. ووفقت مع الله احسن القيام ولم انل ذلك الا بالصدق
والصبر بجهدي لمن يغفر شفيع الانام عليه الصلاة والسلام واولياء الله
الكرام بجهد انال المقام الاكبر والحظ الاوفر والسلام وصلى الله على
سيدنا محمد خاتم النبيين وامام المرسلين والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. وصلى الله على
سيدنا محمد النبي العربي وعلى اله وصحبه وسلم تسليما كثيرا كثيرا
مستمرا الى يوم الدين ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

يقول العبد المتوكل على مولاه توكله. وبالمصطفى اليه توسله
وعلى الطاف الخفية في الامور معوله: عبيد الله واقل عبيده
محمد بن محمد فاضل الفلاتي وفقه الله بمنه، امين امين، امين الصباغ

الحمد لله الغني الحميد، ذي العرش المجيد:
الفعال لما يريد، الذي له ملك السموات والارض وهو
على كل شيء شهيد. نحمده حمدا يوجب المزيد

الورقة الأولى من المخطوط

الورقة الأخيرة من المخطوط

القرن التاسع الهجري ومؤلفات المناقب:

يعد هذا القرن بالمغرب الأوسط قرن الكتب المناقبية، فقد سجل ابن صعد التلمساني مناقب الأربعة المتأخرين في كتابه روضة النسرين، وهم: الشيخ محمد الهواري، وإبراهيم التازي، والحسن أبركان، وابن الحسن الغماري. وألف كتابآخر في الموضوع ذاته، وهو النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب. كما وضع الملالي . تلميذ الإمام السنوسي . تأليفا في مناقب شيخه سماه: المواهب القدسية في المناقب السنوسية.

ترجمة المليانى:

والمليانى هو أحمد بن يوسف الراشدي، أحد مشايخ المغرب في القرن التاسع وبداية العاشر الهجري، لا يعرف تاريخ ميلاده. انتهت إليه رياسة طريق القوم في عهده بالبلاد الراشدية، والمغرب بأسره، وجميع النواحي.[2] وقد فتح عليه في علوم أسماء الله تعالى وتصريفها.[3] وهو من خريجي مدرسة تلمسان، التي كثر تلامذتها في هذا العصر، ومن جملتهم: ابن زكري، والسنوسي، والتنسي، والونشريسي. وهو من تلاميذ الشيخ أحمد زروق البرنصي،[4] طلب العلم بالمغرب الأقصى، وفيها تلقى أوراد الطريقة الشاذلية، كما أخذ بعض أورادها عن طريق التقاء المشايخ في موسم الحج. وكان من الذين يقرؤون[5] القرآن بالسبع.

وقد تزوج مرات عديدة، وكان لا يرفض الهدايا جريا على عادة أصحاب الطريقة الشاذلية، وشرطهم في ذلك أن تؤخذ أو تترك لله. وحسب المليانى فإن الورع والزهد لا يتعارض مع العيش الرغيد، فقد كان يلبس رقيق الثياب، ويجلس على الفرش الحسان.[6] وفي مسألة الهدية نصحه الشيخ قاسم البسكري ببجاية بأن لا يرد ما يعطى له.[7]وأهتم بالترجمة له العديد[8] من المؤرخين، وكانت زاويته برأس الماء، وتوفي سنة 931 هـ/1524 م[9]ودفن بمليانة في المغرب الأوسط.

ومع مرور الوقت كثر أتباعه بالمغربين الأوسط والأقصى، خاصة وأنه شريف النسب، وقد أثبت مؤلف المخطوط شجرته قبل خطبة تأليفه. وكان المليانى يمنح الأوراد في حياته، ويشكل الأتباع في مجموعات ودوائر للذكر، واستعملت خلال تلك الأذكار ألآت الموسيقى والغناء. وربما هي سبب إنكار البعض عليه، خاصة بعد حركة ابن عبد الله المنزولي،[10] التي نسب النبوءة إلى المليانى. وكانت من الأسباب المباشرة التي أدت إلى تعقب أتباعه من قبل السلطان السعدي عبد بن محمد القائم.

وتعرف طريقته الصوفية باليوسفية، وسمي أتباعه بالفقراء، وكان ينسب إليه أنصاره قوله: «جميع من أكل معي، أو شرب، أو جالسني، أو نظر فيّ، لا أسلم فيه غدا يوم القيامة».[11] وقد حكي عنه أن بعض أصحابه قالوا له: إن الشيخ عبد الرحمان الثعالبي قال من رأى من رآني لا تأكله النار إلى ثلاثة. فقال المليانى: «من رأى من رآني لا تأكله النار إلى عشرة».[12] وهكذا يبدو من نص الصباغ، أن شيخه تفوق في المرتبة على من سبقه من الأولياء والعارفين.

وعندما يصل الشيخ في العادة إلى منزلة رفيعة من السمو، والعلو، يؤسس إطار خاص به. وهذا ما فعله الشيخ المليانى، عندما وضع لأتباعه قواعد طريقته اليوسفية. ولم يكن لها الكثير من الأتباع،[13] وجلهم يتمركز في الجهات الغربية من المغرب الأوسط. وهو في تأسيسه لهذه الطريقة يقتدي بأبي الحسن الشاذلي، الذي سُئل عن شيخه فأجاب: كنت أنتسب للشيخ عبد السلام بن مشيش، وأنا اليوم لا أنتسب لأحد، بل أعوم في عشرة أبحر خمسة من الآدميين وخمسة من الروحانيين.

المؤلف:

مؤلف هذا المخطوط[14] أحد تلاميذ الشيخ أحمد بن يوسف المليانى، وهو قاضي القلعة (قلعة هوارة) بالقرب من تلمسان، محمد بن محمد بن أحمد التلمساني المشهور بالصباغ، من أهل تلمسان أخذ العلم بها، ثم تولى خطة القضاء، ولد حوالي عام 923 هـ / 1517 م.[15] وحياته مجهولة ولا نكاد نعثر على معلومات دقيقة حول حياته، غير إشارات بسيطة، فقد كان رضيعا لما انهزم الأتراك أمام السلطان أبي حمو المتحالف مع الأسبان سنة 924 هـ / 1518 م. وللصباغ كتب أخرى غير البستان، فقد وضع شرحا لأسماء الله الحسنى، وله أيضا شفاء الغليل والفوائد في شرح قصيدة الشيخ إبراهيم التازي المعروفة بالمرادية، وله شرح في الأذكار.

موضوع المخطوط:

يتحدث هذا المخطوط عن المناقب والكرامات، والتي قد تبدو للبعض أنها منافية للواقع، أو غير قابلة للتصديق، كونها أمر خارق للعادة. ويجب على الباحث الذي يتعامل مع هذا النوع من المصادر أن لا يرفضها، أو يتجاهلها بحجة أنها غير منطقية، ومعادية للعلم وقوانينه. بل يجب دراستها دراسة نقدية، وبالتالي لا يجب أن نهتم فقط بما قد يبدو جيدا في تراثنا. تلك الدراسة النقدية تتم بغرباة شاملة للمناقب وجعلها واقعة مثمرة، ولا شك أن الكرامة هي لغة خاصة، مشابهة تماما للحلم، وهي قصة دينية، وتجربة روحية فيها الكثير من الحكم، والأمثلة السائرة، وبذلك فهي مادة روحية وتشكل وحدة عضوية. وهذه الأمور ستصبغ تصوف المليانى وتعطيه ميزة خاصة فيما بعد، وسأتناول تلك المسائل حين أحلل مناقبه.

تحليل مناقب المليانى:

سأقوم هنا بعرض وتحليل لبعض الكرامات التي حدثت للمليانى، محاولا أن أبين مدلولات تلك المناقب في الزمان والمكان. وإعطاء صورة متكاملة للواقعة، على اعتبار أن من قيدوا تلك الراويات اهتموا بكل تفاصيلها، لأهمية الجزئيات الصغيرة في هذت الفكر.

بجاية وسفينة الروم:

والمنقبة التي سنتناولها الآن رواها الصباغ عن محمد بن الهواري المصراتي، وهو رواها عن المليانى مشافهة، عندما كان المليانى عند شيخه أحمد زروق ببجاية، ودخل في خلوة حيث أصابه جوع شديد، وأقسم ألا يأكل إلا من طيب. فقدمت سفينة الروم،[16] وأطعموه بأيديهم بعدما رفض الأكل، ثم أخذوه إلى ظهر السفينة، لكنها

رفضت الحركة. فقال لهم قائدها هذا قسيس، وطلبوا منه الدعاء فدعا لهم، وقال لهم: «اذهبوا سالمين غير غانمين».[17] ومثل هذه الكرامة وقعت لأبي الحسن الشاذلي، وقد حكاها الصباغ عن موسى بن عيسى المازوني.

الدلالة في هذه الكرامة في الزمان الذي وقعت فيه، فهي حدثت في بجاية ولا أحد ينكر موقع بجاية في البعد المعرفي الصوفي، فهي بلاد الشيخ الوغليسي. كما أنها حدثت والملياني لا يزال في مرحلة الطلب عند الشيخ زروق، ورمزية زروق هنا هامة جدا. فمعرفة الأزمنة في الدهر[18]الذي تحدث فيه الكرامة، غاية في المدى العرفاني للسالك. والعديد من العلماء دخلوا الخلوة ببجاية، ومن جملتهم الشيخ محمد بن مرزوق التلمساني،[19] دخلها رفقة الشيخ أبي عبد الله محمد بن موسى البحري البجائي. والسفينة تذكرنا بسفينة سيدنا موسى عليه السلام لما كان مع الخضر، وأخذه إلى ظهر السفينة ورفضها الحركة، دلالة على رفضه لطريقهم فهم نصارى، وهو لا يشاطرهم توجهاتهم. ودعوته لهم بالسلامة رد لجميل الإطعام، وقوله غير غانمين إشارة إلى أن هذه الأرض غير أرض الشرك والكفر. إضافة إلى أن هذه القطعة تبين هموم الصوفي في حواره مع الآخر النصراني، ضمن البيئة الجغرافية والزمانية الواحدة وحضور المحرّم، في عملية التنافس الخفي أحيانا، أو الصراع المعلن مرات أخرى.

وفي هذه الكرامة يبحث الملياني عن نفسه ووحدة ذاته الصوفية، فهو لم يصبح بعد شيخا. وهي بذلك تعزيز لتلك الذات، وبالتالي فهو يحافظ عليها وعلى وجودها واستمرارها. وقد جاءت هذه الكرامة في وقتها، لأنها حددت التاريخ الروحي للملياني السالك إلى الله، وحددت العلاقات بين ميوله داخل الذات (دخول الخلوة، أكل الطيب، رفض النصرانية وطريقها)، ثم علاقاته مع جماعته (زروق، بجاية، الدعاء). وإن لتحقيق أمنية الملياني في الإطعام قيمة إيجابية، فنجاحه في الأكل من الطيب ومن أيديهم، دليل نجاح في حياته الصوفية، وهو الميدان الذي اختاره، نال فعلا ما رغب فيه. وتغلب على المعيقات المناهضة للقيم العليا.

الابتلاء تتبعه الفتوح:

وعند رجوع الشيخ الملياني إلى بجاية، طلب منه الشيخ قاسم البسكري التوجه إلى أهله في رأس الماء، وأن يدخل الخلوة. وفي خلوته أتاه رجل بحفنة من دراهم وناوله إياها من بين الحائط والباب، ثم اشترى فرسا وعباءة. وفي رأس الماء لم يعرفه أحد، وكان يصلي بالناس في السوق، فتسارع الناس إليه. ولما سمع بذلك الشيخ عمر النزاري قال: أنا أذهب أقتل هذا الرجل البدعي. فقدم يركب فرسا، ولما اقترب من الملياني وقفت فرسه ولم تتحرك، وكان إذا وجهها عكس ذلك تحركت، فقرر النزاري عدم التعرض له، وأقبل بعد ذلك بقليل على حلقة الملياني التلاميذ والشيوخ.[20]

وقبل تفسير هذه الكرامة يجب إعادة تشكيل عناصرها الأساسية: (بجاية، الشيخ البسكري، الخلوة برأس الماء، الدراهم، الفرس، البدعة، وبعدها الفتح بإقبال الشيوخ عليه). واضح من خلال جزئيات الكرامة، المعاناة داخل نفس صاحبها في اتجاهه نحو التكامل، وهي تعطينا صورة واضحة عن وضعه، ونفسيته، وهمومه ومشكلاته الوجودية والروحية.[21] كما أنها تخبر عن واقعه وحاضره، من حيث درجة إيمانه بالقيم، ومدى تمثله التدرجي لبعضها (فهو يقبل نصيحة الشيخ البسكري).

وتسجل هذه الكرامة كذلك اتجاهاته، وأمانيه، وعوامل القوة والتغير (الدراهم، الفرس، العباءة). ثم تخلق توتر في نفسه، ويظهر مشكلته التي يعانيها إلى العيان (العزم على قتله، واتهامه بالبدعة). ويستعين بطاقاته الروحية، ويخفف من قلقه، ويحافظ على اتزانه النفسي، من خلال بلوغ درجة الإقناع لدى خصومه الذين أصبحوا . بسرعة . تلاميذ! ويستعين بأحداث السيرة النبوية . كما فعل في كرامة سفينة الروم السابقة . من خلال المقابلة بين الفرس وفيل أبرهة. فالفيل أراد أن يثني العرب عن التوجه إلى الكعبة، كما أن فرس الشيخ المزاري أرادت أن تثني سكان رأس الماء من إتباع الشيخ المليانى. وهذه المنقبة أرضت صاحبها إلى أبعد الحدود، خاصة وأنها جاءت في بداية تشكيل فكره الصوفي، بحيث ينعزل عن الشاذلية، ويؤسس إطار خاص به. فهي بذلك أرضت مطالبه، وأشبعت بعض أمانيه، وهدأت توتراته.

الثقة بالله تعالى طريق النجاح:

ومن مناقبه التي حصلت له في فترة نضجه وعزمه على الزواج، وهو الذي تزوج عدة مرات كما أشرت إلى ذلك سابقا. فلما أراد الزواج للمرة الأولى كان شرط أهل الزوجة مائة،[22] وخادمين، وبغلتين، وهو صداقها، فقبل المليانى. فقيل له: هذا شيء كثير وأنت لا شيء عندك. فقال لهم: خزائنه كثيرة، ورحمته واسعة. فأتته أربعون دينارا، وانهالت عليه الهدايا، والفتوح، من كل مكان.[23]

والزواج في المنقبة يشير إلى الانبعاث والتجديد، ودلالته الثانية هي الاستقرار والثبات والتكامل. وهناك ارتباط بين الحياة الجديدة للإنسان والزواج، وكل معطيات هذه العملية ترمز إلى الحركة والتغير، فالمرأة نبع الخصوبة. وشرط أهل الزوجة يشير إلى الهبوط إلى الأرض، الهبوط إلى شيء أسفل غير ذي قيمة، وهي تعبر عن العداوة والشر (لم يكن في طاقته ذلك الصداق)، غير أنه يفاجئ المليانى الحضور بتوكله على الله بلا حدود، وهو انتقال إلى طور جديد، وهو يلمح إلى الحياة المستمرة التي لا تفنى. والفتح الذي وقع له يظهر المعنى التجديدي، والتغييري الذي حصل له في تجربته الإنسانية.[24] وهذه الكرامة تخبرنا عن عملية الانعتاق عند الصوفي، وعن سيره نحو المطلق. تلك هي سبيل الهجرة الكبرى، أو الطريق إلى الله أو التفريد، وعن هذه الرحلة الطويلة والغاية في الذات الصوفية تحدثنا هذه الكرامة.

وتعتبر الدنانير هي الزاد الذي يأخذه معه الصوفي في رحلته الجديدة، وعلى ذلك فهو القوة النفسية والقدرات التي تعطيها لصاحبها. فالدينار هنا هو شهرة المليانى، وتقدير الأتباع لسيد الطريقة. والدراهم في العادة هي طاقات وقيم وتطهر، ويؤيد هذا الطرح أن الدراهم في تفسير الأحلام هي دين وقضاء حاجة وصلاة.[25] ذلك لأن الشهادتين مكتوبتان عليها. ومن رآها فإنه سيتم له أمر الدين والدنيا.[26] والدرهم رمز للخير، والعلم، والدين، وتواتر في الأشياء الجليلة. وتذكرنا هذه الكرامة بأخرى حدثت للسقطي، الذي أعطاه ابن أخته الجنيد أربعة دراهم، فقال السقطي: «كنت أحتاج إلى أربعة دراهم. فقلت اللهم ابعثها على يد من يفلح عندك».[27]

وكذلك تحمل هذه الكرامة دلالة في ذكر العدد أربعة، لأن هذا العدد يرمز إلى التكامل.[28] فالجنة لها أربعة أنهر، والسنة فيها أربعة فصول، والشهادة فيها أربع كلمات (لا إله إلا الله). والأوتاد أربعة رجال منازلهم على منازل أربعة. فهذا الرقم هو دليل على الفلاح والتمام، وهو رمز للجنة ولمفتاحها.

التوبة وشجرة المشماش:

ويواصل المليانى رحلته الصوفية وتجربته الروحية، وبينما هو جالس في إحدى الأيام حيث كان برأس الماء من وطن بني راشد، إذ بشاب مقبلا عليه حسن الصوت يغني، فأعجبه صوته، فقال له الشيخ: ليت هذا الصوت الحنين يذكر الله. ثم طلب الشيخ من الشاب التوبة، وكان بقربهما شجرة مشماش وهم في فصل الشتاء، ليس بها ورق فضلا عن الثمار، فقال له الشاب: إن أطعمتني المشماش منها فأنا تائب. فهزها الشيخ فإذا بالمشماش يتساقط منها من أحسن ما تثمر! فتاب الشاب في الحال، وذهب فانعزل بمغارة يتعبد فيها. وبعد أيام، ذهب إليه الشيخ فقال له: كيف حالك مع الله؟ فقال له الشاب: أعطاني ما لم يعط لأحد.[29] ومثل هذه الكرامة وقعت لإبراهيم الخواص، على ما حكاه موسى بن عيسى المازوني.

ولعل أهم شيء في هذه الكرامة هو استعمال الشيء في موضعه (الشباب، التوبة، الصوت الحسن، ذكر الله). وحضور دليل التوجه إلى الله في الحال، فالشجرة المثمرة إن كانت كذلك فالاستجابة في ذلك الوقت مرجوة قوية، مع بطء قليل، وإذا كانت قد أدركت الثمر عند طلب الدعاء فهي عاجلة سريعة. فالموقف اختبار حقيقي للصوفي، الذي يجب أن يكون حاضر البديهة، والتركيز، الذي سيؤهله للثبات.

وتبدو شجرة المشماش رمزا للخصوبة الخالدة، فهي تثمر حتى في الوقت غير العادي للثمار. كما أن الشجرة هي مسكن الأرواح ، ومنبع الاخضرار الدائم والاستمرار، والروح المتجددة، والظل المنعش والحياة والماء. وهي تشير للكمال والتحقق (التوبة ممكنة مع العزم)، وبعلوها تلمّح إلى المعراج الروحي نحو القمة لبلوغ معرفة الله وتوحيده. ويمكن أن نستنتج من الشجرة فكرة العودة[30] والدوام، وإتباع الحق، قال تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المومنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا﴾.[31]والخطاب الكرامي هنا يريد أن يقول: بأن المريد الجديد في هذه المنقبة يرضى بمبايعة الشيخ، من خلال ظهور دليل الاقتداء والإتباع. والشباب هم عدة كل حركات التجديد والتغيير (وأبرز دليل هم صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، وقبلهم أصحاب الكهف فهم فتية).

والعملية كما هو ظاهر تدور أحداثها بين أفكار تتخذ شكل الصور. فكأن ذلك الشاب الغريب، الذي يُهدى ويعرف الحقيقة، عملية تصوير للقطب الذي يدل على طريق الفلاح بعمل خرافي تتجاوز مخيلة المريد، ومن ثمة يتم إسقاطها على المعلم الذي تعتبر وسائله محدودة. وتنتهي الكرامة بانقلاب كلي للمراد إدماجه في طريق القوم، وهنا يطرح الباحث الإشكال التالي حول تحول المريد من الزاوية إلى الزاوية: ما هي الآلية المثلى لإقامة التوازن بين الصوفي المنعزل، وبين المجتمع؟ فكيف إذن تقع التغطية والتكامل، بأن يستدعي صاحب الخلوة الغير إلى

حياته ووعيه الخاص، وإلى الحقل الذي ارتضاه؟ فعطاء الله سبحانه وتعالى الذي يحس به هذا المريد، يشعر به الآخر. دون شك. في مكان آخر، وفي مهمة أخرى غير العزلة.

غتبة الشيوخ:

وفي الفصل الذي خصصه لإثبات ولاية المليانى، يدرج الصباغ العديد من الكرامات، والمناقب، التي يستدل بها على ولاية شيخه. ومنها أن موسى الزنداري، وكان من تلاميذ الشيخ محمد بن يوسف السنوسي، كان يغتاب الشيخ المليانى مع بعض الجهال. فلما قدم إلى مجلس شيخه، بادره الشيخ السنوسي وقال له: تتقول في سلسلة الذهب سيدي أحمد بن يوسف. اذهب إليه الساعة واطلب منه العفو والسماح، وأن يجعلك في حل من الغيبة التي اغتبه بها، وخذ عليه من الأسرار التي منحه الله.[32] فذهب وفعل ما أمره به الشيخ السنوسي.

والإشارة إلى الإمام السنوسي هنا تعطي هذه الكرامة مكانة كبيرة، فهو أحد أبرز مشايخ التصوف في المغرب في هذه الفترة. والهدف جلي من إبراز اسم السنوسي عند صاحب صنعة الكرامة، وهو تقدير خاص له ولمكانه فهو أحد أسياد طائفة التصوف. ونلحظ نوعا من الإرهاب الذهني، الذي يمارس على المريد (تتقول في سلسلة الذهب؟!) وفيها إشارة إلى القدرات الأسطورية للصوفية في مجال المعرفة (علم بالغيبة دون إخبار). والتعنيف الذي أبداه السنوسي يحمل الكثير من الرموز، فهو من شيخ المشايخ إلى تلميذه. ويرتبط ذلك الزجر بمكان له دلالته وهو المسجد أو الجامع، وغالبا ما تكون الأحداث بعد صلاة تهجد، أو مكابدة، وهو ما يزيد في الضغط على المتلقي. فالنفس دون شك متهيئة لقبول الإيحاءات جمعيها.

لغز ابن غازي:

وقد تميز الشيخ المليانى بالفطنة والذكاء الحاد، ويبدو ذلك جليا من مسألة الشيخ محمد ابن غازي التي تحدى بها علماء المغرب حتى انتهت إليه، وهي أبيات ابن غازي التي قال فيها:

وميت قبر طعمه عند رأسه إذا ذاق من ذاك الطعام تكلما
يقوم فيمشي صامتا متكلما ويأوي إلى الرمس الذي منه قيما
فلا هو حي يستحق زيارة ولا هو ميت يستحق ترحما

فأجاب المليانى في بيت واحد وحلّ الرمز بقوله:

هو القلم القبر الكتابة طعمه مداد كلامه الكتابة فافهما
وقائل هذا أحمد بن محمد عفا الله عنه كلما كان أجرما[33]

المليانى ومكانته لدى الشيوخ:

وكان المليانى منارة علمية ومزارا لكل طالب علم، فهذا الشيخ والفقيه محمد بن عبد الجبار الفيقيقي، جاءه من بلاده فيقيق فوجده بموضع يقال له الأجراف من وطن شلف، فطلب منه الدعاء. وتكلم معه في عدد من العلوم،[34] فارتاح للشيخ المليانى وسرّ بزيارته، ورجع لبلاده في بهجة، واطمئنان من كلام الشيخ الذي يريح الزوار.

ومن الذين اعترفوا بعطايا الله على المليانى وفتوحاته عليه، الشيخ محمد الزيتوني، الذي قدم من المغرب ذاهبا إلى الحج. ونزل في مكان بالقلعة، فجاءه المليانى وسلم عليه، ثم قال له الزيتوني: أنت ابن زروق،[35] وهو ابني، أنت تلميذ زروق وهو تلميذي. ثم طلب الزيتوني من المليانى الدعاء! فدعا له، ثم قال له الزيتوني: أعطني رجلك أقبلها. فامتنع المليانى حياء منه، فأقسم عليه. فأعطاه رجله اليمنى فقبلها، ثم قال له الزيتوني: هات اليسرى كي لا تغضب اليسرى من اليمنى! فأعطاه اليسرى فقبلها. ثم قال له: يا أحمد بن يوسف، قد أعطاك الله من القاف إلى القاف. فقال له المليانى: بل أعطاني أكثر من هذا! ويعلق الصباغ بقوله على هذه الحادثة بقوله: «انظروا لتعظيم هذا السيد العالم الصالح سيدي محمد الزيتوني، مع جلالة قدره في العلم، والدين، لسيدي أحمد بن يوسف مع أنه شيخ شيخه. يختص برحمته من يشاء، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء».[36]

والرمزية الكبيرة في الكرامة السالفة الذكر هو الحج، وهذا الأخير كونه سفرا فهو في المنقبة رحلة نفسية، ورحيل عن الذنوب. والرحيل في الحج، وجه وثوب لتجربة التكامل. فغرض الذهاب هو البيت الحرام، إلى الله، إلى التطهر.[37] وبذلك هو غوص في الثابت والخالد، وراء التحول والظواهر المتقلبة. بالإضافة إلى الإشارة الظاهرة في السند الصوفي المتصل وأهميته (أنت ابن زروق، وهو ابني، أنت تلميذ زروق، وهو تلميذي)، وهي الصورة التي يحاول كل سالك الحصول عليها، بمعنى آخر المدينة الفاضلة للصوفية، أو مدينة الأولياء، يقطع المسافة من المغرب الأقصى، إلى الأوسط، للتأكيد على تلك العلاقة، والغرض هو الحج، ووسط هذه الرحلة ربط للصلات الروحية وتأكيدها، والإشارة إلى عناصرها.

بناء الروح بمعرفة الحلال والحرام:

ولقد تقلبت أحواله حسب أوضاع العصر، فقد تعرض للسجن، والاضطهاد. بعدما كثر أتباعه برأس الماء، ووهران، ونواحي البطحاء، وتلمسان. وهو أمر أقلق الدولة الزيانة، التي تخوفت من تجمعاته التي كان يعقدها بتلك الجهات، وخاصة في فترة السلطان أبي حمو الزياني الذي سجنه بتلمسان، وبقي في السجن أياما. واختبره هذا السلطان بأن وضع له . في إحدى الأيام . على الطعام دجاجة ميتة، وأخرى مذكّاة. ولما أتوه بالطعام وعليه الدجاجتين، قال: هذه حلال، للمذكّاة. وهذه حرام، للميتة.

والدجاجة ترمز إلى ما يتقدم بسرعة، وهي تعطي إشارة إلى الإحساس السريع للمليانى وخياله، وفطنته، وبديهته، التي ترفض الخبيث. وكان سيدنا سليمان عليه السلام يتحدث مع الطير، ويقرأ أفكارهم، فهو يستلهم هذا المثال، ويحاول أن يتصف بالحكمة المتصفة بالفراسة، أي بقراءة تعابير الفكر والروح على الوجه.[38] لأنه ارتاح

للمذكّاة، بينما رفضت نفسه الأخرى. والمياني لم يفقد صوابه في السجن، بل أعاد بناء ذاته. وهو بهذه الكرامة، يعبر عن تحقيق أمنيته في إعادة بناء روحي لشخصيته.

السجن والنعيم المقيم:

والأولياء يروون مصير السلاطين والملوك، فقد سمع ابن مرزوق رجلا من العباد أرباب المكاشفات بمنزل العبّاد، وقد أطال التأمل في الجامع المجاور للضريح، وهو يقول: «يا ما أعد الله لك يا أبا الحسن من النعيم المقيم».[39]

ويبدو أن السلطان الزياني لم يتأكد ويتحقق من فراسة المليانى، فاختبره من جديد بأن بعث له الرجل الذي يقتص من الناس، ولما دخل عليه في السجن الذي يوجد به، لم يجد أحدا. قال الشيخ المليانى: وأنا أنظر إليه. ثم رجع إلى الأمير وقال له: لم أجد أحدا، فرده ثانيا، وثالثا، فلم يجد أحدا. ثم أتى السلطان بنفسه فلم يرى شيئا، والشيخ ينظر، قد أخذ الله بأبصارهم عنه. وبعد ساعة قال السلطان للشيخ: اذهب قد سرحتك. فقال الشيخ للرسول: قل له لا أخرج حتى تخرجوا جميعا، لأن الله سجنني ها هنا.[40] والصباغ هنا يقابل هذه الواقعة بحادثة الهجرة، وكيف أن قريش عميت أبصارهم النبي صلى الله عليه وسلم.

وبعد أيام قدم الأمير المسعود متحركا على أخيه، فهرب أبو حمو لوهران. ودخل المسعود لتلمسان، وخرج الشيخ ولم يطلقه أحد، لتوكله على الله.[41] فالأولياء هم الذين يزكون الحكام إذا استقاموا، فهاهو الولي عبد العالي بن موسى الزيادي، يقول عن السلطان أبي الحسن المريني، بأنه: «في منزلة علية في الجنة».[42] ويقدمون لهم النصح خلال الغزو، فقد طلب الزيادي من ابن مرزوق أن يكاتب أبو الحسن المريني في عدم جوى طلب العرب في الخروج للقيروان، وبعد فترة بسيطة، جاء منادي وقال: «لا تبعثوا أحدا فقد قضي الأمر».[43]

خدمة الشيوخ مطية الفلاح:

وكان للشيخ المليانى خادم يقوم بشأنه، يقال له علي بن أحمد الكثيري، ترك هذا الرجل أهله ولازم خدمة الشيخ. وذات يوم ذهب علي لزيارة أهله وأولاده، فلما رآه والده، قال له: أرني منقبة واحدة من خدمتك للشيخ فسكت الولد، فقال له أبوه: انطلق معي أريك منقبة . وكان الأب خادما للشيخ عبد الرحمان القلعي . فذهبا على موضع بأعلى بني كثير فيه ديس كثير، ثم دخلا تحت ديسة كبيرة شديدة الخضرة في غاية الحسن، فوجدا مغارة، فقال الأب لابنه: انظر، فنظر فإذا بالكعبة تلعب بأستارها الرياح، فعاينها وتحققها على الصفة التي يصفها الناس. فخرج الولد من حينه يجري حافيا لا يعرف شوكا ولا حجرا، إلى أن دخل على الشيخ المليانى، ورمى بنفسه عليه، فأخذه الشيخ برفق إلى أن سكن ما به، ثم سأله عن حاله؟ فقال له: أراني أبي الكعبة لخدمته لشيخه سيدي عبد الرحمان القلعي، وأنا خدمتك وتركت أهلي وأولادي، فلم أر شيئا! فقال له الشيخ: «اذهب لأهلك، فقد أعطاك الله الدنيا والآخرة».[44] فكان كما أخبر به الشيخ المليانى من كثرة أولاده، وماله.

وخدمة الشيوخ ترد فيها العديد من النصوص الصوفية التي تشيد بأصحابها، وبعضهم وصل إلى أعلى الدرجات والمراتب بفضلها، وفاق في ذلك من خدمهم من الأساتذة والأولياء. فهذا الشيخ الداستاني، يحكي أنه

سمع مشايخه يقولون: بأن البسطامي خدم ثلاثمائة وثلاثة عشر أستاذا، آخرهم جعفر الصادق رضي الله عنه، وكان يقول: كانا جعفريين، أحدهما أجلّ من الآخر. والذي خدمه أبو يزيد كان جعفر بن محمد الصادق. فسقى له سنتين، وكان يسمى طيفور السّقا،[45] حتى قال له إني أرى فيك أثر جدي، أرى أن ترجع إلى بيت نفسك وتبني بيتا وتنادي في هذا الخلق نداءا، يقصد يدعو الخلق إلى الله تعالى. وكان والد الصباغ المعروف بابن معزّة، من أتباع أحمد بن يوسف الملياني، وظل يدافع عن شيخه ويلازمه ويغسل ثيابه طول حياته. وكان يدعي أنه يسير على نهج الرسول صلى الله عليه وسلم، ويقول أنه طلب من الله تعالى ثلاثة أشياء فحققها له في ليلة واحدة، وهذه الأشياء هي: العلم بغير مشقة، وأن يبلغه فوق مبلغ الرجال، وأن يريه الرسول في اليقظة لا في المنام.

الخاتمة:

لا شك أن الكرامات والمناقب، التي تم عرض بعضها في هذه الورقة، تقف قرينة على الأهمية التاريخية للفكر الكرامي وأصحابه، في الغرب الإسلامي. فكثيرة هي التآليف والتقييدات حوله، بحيث تكاد لا تخلو منها قرية أو قصر أو مدشر، فقد تنافس الزهاد في إبراز قدراتهم أمام المريدين، وهو وضع يحتاج للكثير من الانضباط والتضحية. ومن المفيد هنا التذكير بأهمية البطل الذي يثبت الواقعة المتجددة للكرامة، وإحداث صيرورة في السند المناقبي، وبطل الصباغ في رواياته لمناقب الملياني هو: الشيخ موسى بن عيسى المازوني بكل ثقله العلمي والصوفي، فأغلب الكرامات تنتهي بهذه الجملة: «ومثل هذه الكرامة وقعت (ويذكر أحد أقطاب التصوف) على ما حكاه المازوني». ولعل أهم ما يمكن أن نلاحظه أيضا هو بروز الكرامات والمناقب في فترة الضعف والابتلاءات، مع قلتها وانعدامها زمن القوة والتمكين، وهو ما يطرح العديد من التساؤلات والإشكالات حول جدوى هذه الوقائع، إذا اندثرت وتلاشت في مرحلة البناء والتشكيل.

الهوامش:

[1]. ذكر سعد الله زمزم الأخيار بدل زمزم الأبرار. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط الأولى 1998، ج 1، ص: 495.

[2] . الصباغ، بستان الأزهار، و 9 و.

[3] . محمد بن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، مطبعة الكرامة الرباط، ط الثالثة 2003، ص: 112.

[4] . للملياني تعليق على وظيفة شيخه أحمد زروق. ينظر: سعد الله، المرجع السابق، ج 4، ص: 78.

[5] . الكتاني، سلوة الأنفاس.

[6] . يقابل الصباغ بين الملياني والإمام مالك بن أنس، الذي بيع ما في بيته بعد وفاته فوجدوا ما قيمته خمسمائة دينار من مخاد محشوة بريش وغيرها. ينظر: بستان الأزهار، و 9 و.

[7] . الصباغ، بستان الأزهار، و 5 ظ.

[8] . من جملتهم: علي بن موسى في كتابه ربح التجارة ومغنم السعادة فيما يتعلق بأحكام الزيارة. وصاحب مخطوط مناقب أبي العباس أحمد بن يوسف، والذي توجد منه نسخ بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: د 1457، د 1471.

[9] . هناك من يرى بأنه نوفي سنة 927 هـ . ينظر: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض بيروت، ط الثانية 1980، ص: 315.

[10] . هو أحمد بن عبد الله المنزولي، أخباره مفصلة في الباب الخامس من كتاب تبصرة الرئيس الأمين في ذكر إمام المسلمين لمؤلف مجهول. وهو من الذين صحب أصحاب الملياني، ثم تزندق وذهب مذهب الإباضية. ينظر: ابن عسكر، المصدر السابق، ص: 113.

[11] . سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص: 497.

[12] . الصباغ، المصدر السابق، و 11 و.

[13] . سعد الله، المرجع السابق، ج 4، ص: 80.

[14] . يذكر عبد السلام بن سودة أنه لم يدر من هو مؤلف هذا المخطوط، وفي هذه النسخة التي اعتمدت عليها يذكر المؤلف اسمه في خطبة الكتاب. ينظر: ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص: 149.

[15] . سعد الله، المرجع السابق، ج 2، ص: 114.

[16] . مرة يذكرهم باسم الروم، ومرة يذكرهم باسم النصارى.

[17] . الصباغ، المصدر السابق، و 5 ظ.

[18] . علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم القطاع اللاواعي في الذات العربية، دار الأندلس بيروت، ط الثانية 1984، ص: 34.

[19] . محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر الجزائر، ط 1981، ص: 467.

[20] . الصباغ، المصدر السابق، و 5 ظ.

[21] . زيعور، المرجع السابق، ص:180.

[22] . في الأصل هكذا دون تحديد ولعلها مائة درهم.

[23] . الصباغ، المصدر السابق، و 6 و.

[24] . زيعور، المرجع السابق، ص : 187.

[25] . ابن سيرين، تفسير الأحلام الكبير، مكتبة صبيح القاهرة، ط 1963، ص: 272.

[26] . المصدر نفسه، ص: 272.

[27] . القشيري، الرسالة القشيرية، ج 2، ص: 288.

[28] . زيعور، المرجع السابق، ص: 196.

[29] . الصباغ، المصدر السابق، و 6 ظ.

[30] . زيعور، المرجع السابق، ص: 222.

[31] . الآية 18 سورة الفتح.

[32] . الصباغ، المصدر السابق، و 7 ظ.

[33] . الصباغ، المصدر السابق، و 9 و.

[34] . الصباغ، المصدر السابق، و 8 ظ.

[35] . في الأصل الزروق.

[36] . بستان الأزهار، و 9 و.

[37] . زيعور، المرجع السابق، ص: 194.

[38] . زيعور، المرجع السابق، ص: 189.

[39] . ابن مرزوق، المصدر السابق، ص: 468.

[40] . الصباغ، المصدر السابق، و 9 ظ.

[41] . الصباغ، المصدر السابق، و 10 و.

[42] . ابن مرزوق، المصدر السابق، ص: 468.

[43] . ابن مرزوق، المصدر السابق، ص: 467.

[44] . الصباغ، المصدر السابق، و 10 ظ.

[45] . كتاب النور من كلمات أبي طيفور وفيه مناقب البسطامي، تحقيق عبد الرحمن بدوي ضمن كتاب شطحات الصوفية، دار القلم بيروت، ط الثالثة 1978، ص: 63.